

أسس الحياة الطيبة

الأستاذ أحمد أمين

يسعى الإنسان في أيّ موقع من هذه الحياة إلى السعادة، إلى حياة طيبة وهانئة، وقلّة هم الذين يتفوقون على معنى السعادة الحقيقية، وكثر هم الذين يختلفون، ونقدم لكم في هذه المقالة ما ورد على لسان الكاتب أحمد أمين عن أسس الحياة الطيبة من وجهة نظره، فلنقرأ معا، ربما نتفق، وربما نختلف، لكن بالتأكيد هي مقالة قيّمة:

كل الناس يطلب الحياة الطيبة السعيدة، ولكن أكثرهم لا يجدها؛ إما لأنه حرم وسائلها؛ وإما لأنه لم يعرف الطريق إليها. كتبت سيدة فاضلة تقول: إنها في رخاء في عيشها؛ فلديها المال الكافي للإنفاق في سخاء، وزوجها موظف كبير تُدرُّ عليه وظيفته المال الكافي، وأولادها في صحة ناجحون في مدارسهم، ومع ذلك فليست سعيدة؛ لأنها تشعر بضيق لا تدري سببهُ متوقعة في كل لحظة الشر، وإن لم يكن؛ فابنها إذا غاب قليلاً أوجست خيفة من غيابه، وزوجها إذا سافر توقعت الشر في سفره، وابنها إذا دخل الامتحان اضطربت خوفاً من سقوطه، وهكذا لم ينفعها مالها، ولا غنى زوجها، ولا صحة أولادها، ولا وسائل الترف والرفاهية من الشقاء الذي هي فيه، وتساءل بعد ذلك عن وسائل الحياة الطيبة السعيدة.

يا سيدتي! أكثر الناس يخطئ؛ فيفهم أن الغنى هو سبب السعادة، نعم إن الفقر سبب من أسباب الشقاء؛ فمن لم يجد ما يعوله ويعول أولاده فهو في شقاء؛ فالقدر الكافي من المال لسد الحاجات الضرورية وسيلة من وسائل الحياة السعيدة، ولكن الغنى ليس كل شيء في الحياة السعيدة، بل كثيراً ما يكون عائقاً عن السعادة؛ لأسباب بسيطة واضحة كل الوضوح؛ فالمال لا نستطيع أن نشترى به الصحة، ولا الحب، ولا الطمأنينة.

ومن ركز غرضه في جمع المال لم يجد فرصة للترفيه عن نفسه في النواحي الأخرى، والذائدُ التي تنال بالغنى سريعة الزوال، والنفسُ أسرع إلى الملل منها، والغنى المفرط مشغلة تجعل الغني خادماً للمال وليس المال خادماً، وأكثر الناس يخطئ في حقيقة بديهية، وهي أن ليست السعادة أن تكون عندك شيء، ولكن أن تعمل شيئاً؛ فالسعادة ليست في الملكية، ولكن في العمل.

إن مثلاً من يجمع المال؛ قصداً للسعادة كمثّل من يتسلح للعدو، فيلبس دروعاً ثقيلة، ويحمل أسلحة كثيرة؛ حتى يتقل ذلك عليه؛ فيمتعه من السير.

فغناك وغنى أسرتك يا سيدتي لا يخلق السعادة، ولكن يصلح أن يكون وسيلة من وسائلها.

تسأليني في آخر خطابك عن وسائل الحياة الطيبة، فأرى أنها تقوم على أسس أربعة:

أولها: العمل وهو قدرٌ لا بد منه للغني والفقير، والرجل والمرأة، وتصبح الحياة عبئاً ثقيلاً لا يطاق من دونه.

إن العمل واجب من ناحية الأخلاق؛ فمن أكل من مال الأمة وجب أن يقدم لها أجر ما أكل، ومن سوء الحظ في المدنية الحاضرة والسابقة أن الجزاء فيها ليس متكافئاً مع العمل؛ فالأمم كلها مع الأسف، مملوءة بالأمثلة العديدة لأناس يعملون كثيراً، ويعملون عملاً نافعاً عظيماً، ثم لا يكافئون على عملهم إلا بالقليل الذي يسد رمقتهم، وبجانبهم من يعمل قليلاً، أو لا يعمل أصلاً، أو يعمل شراً، ثم هو يكافأ على ذلك من غير حساب.

وهذا عيب في المدنية يجب أن يعالج، ثم العمل واجب من الناحية النفسية؛ فمن لم يعمل عوقب بالسامة، والملل، والضجر، وكلما كان العمل لنفع الناس كان الجزاء عليه أوفى.

وعبرة ذلك في التاريخ نفسه، فهو لم يحفظ لنا أسماء الأغنياء، والوزراء، والمترفين بقدر ما حفظ لنا أسماء كبار العاملين الخيِّرين.

بالأمس كنت أتحدث إلى صديق لي عن العالم الشهير (ابن حزم الأندلسي) فكان مما قلته إنه كان عالماً كبيراً، وأخلاقياً عظيماً، وكان من بيت كبير فقد كان أبوه وزيراً.

فقال: ما اسم أبيه؟ قلت نسيت ذلك، قال: إن في ذلك لعلبة لقد حفظت، وحفظ أمثالك اسم العالم ونسيت، ونسي أمثالك اسم الوزير الذي كان ذا جاه عريض؛ فالحياة بلا عمل حياة ميتة، ولست مخيراً أن تعمل؛ وكل اختيارك إنما هو في نوع العمل الذي يصلح لك، ويصلح له، وإني لا أشك في أن الأغنياء الذين لا عمل لهم من أشقى الناس، ولذلك يبحثون عن اللذائذ الرخيصة يضعون بها سأمهم، ولكن سرعان ما تنقضي لذائذهم فخير أكلة ما أكلها الإنسان على جوع، وخير نوم ما نامه الإنسان بعد تعب، والراحة الدائمة في حاجة إلى إجازة أكثر من حاجة العمل إلى إجازة، ولعل سأم السيدات وخصوصاً المترفات اللاتي اعتمدن في عمل البيت، وتربية الطفل على الخدم، والحشم سببه هذا، وهو الحياة بلا عمل، وتلتمس السعادة من طريق اللذائذ التافهة.

الأساس الثاني للحياة الطبيعية: الطبع الراضي، أو المزاج الفرح، أو الطبيعة المتفائلة؛ فنرى في الحياة وجوهاً الباسمة، وخيراتها الكثيرة؛ فكثير من أسباب الشقاء يرجع إلى الطبع الساخط، الطبع الذي لا يرى في الحياة إلا مصائبها، وشروها، وأحزانها، الطبع الذي يخلق من كل سرور بكاءً، ومن كل لذة ألماً، ومن كل مسرة محزنة، الطبع الذي إذا أتيت له بعشرين تفاحة كلها جيدة ما عدا واحدة لا تقع عينه إلا على الفاسدة، وإذا كان في بيته كل ما يسر لم يلتفت إليه، وحلّق الغضب من طبق كسر، أو كرسي في غير موضعه.

الطبع الراضي متسامح في الصغائر، خالق للسعادة، بأش مستبشر، يتوقع الخير أكثر مما يتوقع الشر، يضحك حتى في الهزيمة، وحتى عند الخسارة المادية، يرى أن مسرح الحياة كميدان لعب الكرة، يكسب اللاعب فيضحك، ويخسر فينتظر الغلبة.

الأساس الثالث: أن يكون للإنسان غرض نبيل في حياته الاجتماعية، يشعر بأن هناك بائسين من نواحيهم؛ فالدنيا مملوءة بالأم الناس من مرض، وفقر؛ فإذا استطاع أن يشعر قلبه الرحمة؛ فيعمل في جمعية تخفف الفقر، أو تواسي المرضى، أو تسعف المنكوبين، أو نحو ذلك شعر بأن حياته غنية بعمل الخير؛ فاغتبط وسعد؛ يسعد لمشاركة الخيرين في عملهم، ويسعد في شعوره بمحاولته إنقاذ البائسين من يؤسهم.

وهذا عمل في متناول الرجال، والنساء على السواء؛ فكل يستطيع أن يشترك في خدمة اجتماعية يقدمها؛ فيشعر بالغبطة والسرور، ولا شيء يبعث الضجر والسأم كمعيشة الإنسان لنفسه فقط.

إن الأناية وحب الذات خلق طفلي يصحب النفس الضيقة في دور الطفولة؛ فمن كبر ولا زال لا يجب إلا نفسه كان ذلك علامة طفولته، وصغر نفسه؛ الأناية كثير السأم لأنه لا يشعر إلا بنفسه ونفسه تدور حول نفسها، أما الذين يشعرون بغيرهم فيضيئون نفوساً إلى نفوسهم، وأفاقاً إلى أفاقهم، ويجدون لأنفسهم أغذية مختلفة من شعور الآخرين وآرائهم.

الأساس الرابع للحياة الطبيعية: أن يكون لك غرض في الحياة محدود، ثم يكون لك اهتمام في تحقيقه، وتعاون مع من يشاركك في برنامجه، توسع ثقافتك فيما حددت من غرض وتعشقه؛ حتى تتلذذ من العمل الذي يقرب من النجاح فيه؛ فحدد الغرض، وارسم برنامجه، ورتب خطواته، وأحبه، وأحب العمل للوصول إليه تشعر بسعادة لا تُقدّر.

إن كثيراً من البؤساء في الحياة سبب يؤسهم أنهم يعيشون ولا يدركون لم يعيشون، وما وظيفتهم في الحياة وما غرضهم منها؛ فيكون كالمسائر في الشارع بلا غرض، يتسكع هنا أنا وهنا أنا؛ فإذا رأيت رجلاً متبرماً من الحياة، ضيق الصدر، ملولاً ضجراً يقلب عليه الحزن والكدر فاعلم أنه فقد عنصراً أو أساساً من عناصر الحياة الطبيعية؛ فهو إما فارغ لا عمل له يعتمد على مال موروث، أو يتكئ على مال يأتي من عمل غيره، ويكتفي بهذا، ويركن إلى البطالة، أو هو إنسان تعود أن يرى الحياة بمنظار أسود دائماً ولم يقاومه، أو هو عاش لنفسه فقط؛ فلم يشترك في عمل اجتماعي يشعره بالرحمة، والشفقة، وهي من النعم الكبرى على الإنسان. أو عاش بلا غرض كالريشة في الهواء لا يتحمس لعمل، ولا ينظر غاية.

هذه يا سيدتي هي أسباب الحياة الطبيعية، وفقدانها أو فقدان واحدة منها يجعلها حياة تيسة بغيضة.

فليختبر كل نفسه؛ ليعرف موضع مرضه.